دراسة انثروبولوجية

سكان الصحراء الكبرى والسودان الغربي

من ابن حوقل إلى ابن بطوطة

د. نقولا زيادة

(1)

تمتد الصحراء الكبرى من سواحل المحيط الأطلسي حتى شواطىء البحر الأحمر. وهذه الصحراء حديثة العهد، من الناحية الجيولوجية، إذ إن تطورها من أرض صالحة للرعي والزراعة إلى أرض جرداء بدأ قبل فترة لا تتجاوز ثمانية آلاف سنة من أيامنا هذه وقد كانت تعمرها البحيرات (التي لم يبق منها سوى بحيرة تشاد) وتخترق الأنهار ربوعها، في مجموعتين، الواحدة تصب في النيجر والثانية تفرغ ماءها في النيل. ولما بدأت الصحراء بالظهور وانكمشت الأجزاء الصالحة للاستغلال والسكن، تبدل المظهر الديمغرافي للمنطقة الممتدة من البحر المتوسط (شمالاً) إلى المناطق المدارية (جنوباً). فقد انحدر سكان المناطق الآيلة إلى الجفاف شمالاً وجنوباً، واختلفت الجماعات المنفصلة واحدتها عن الأخرى، وتباين تطورها فالشمالية أفادت من تطور الجوار القريب والبعيد، أما الجنوبية فقد ظلت في العصر الحجري حتى القرن الثالث قبل الميلاد.[1].

ونحن معنيون، في هذا البحث، بالمنطقة الغربية من الصحراء الكبرى. ولما كان جغرافيو العرب القدامى قد اعتبروا الصحراء «بحراً رملياً»، فقد أطلقوا على الشريط العريض المصاقب لهذه المنطقة الصحراوية اسم «الساحل». ويلي الساحل جنوباً منطقة الغابات المدارية الكثيفة التي تصل المحيط الأطلسي في خليج غينية.

ومما يجب أن يذكر، باديء الأمر، هو أن المناطق المدارية في غرب افريقية كانت غنية بالذهب، الذي كان يُحمل إلى «الساحل» حيث كان يُقايَض بالملح، الذي كان يحمل من أوْليل (على الساحل) وتغازَى (في الجزء الشمالي من الصحراء الكبرى) ومن غيرهما. وكان أهل الصحراء، الذين يشار إليهم بالبربر، هم حملة السلع بين الشمال والجنوب. والسلع كان يدخل في تعدادها، فضلاً عن الملح (من الشمال) والذهب (من الجنوب) الأدوات والآلات والعطور والأقمشة (من الشمال) والعاج والرقيق والريش (من الجنوب). ويجب أن نسرع إلى القول بأن هذه المتاجر لم تنقل في جميع العصور، بل كان ذلك يتوقف على الحاجة إليها.

يبدو أن البربر كانوا يشاركون في نقل هذه السلع، أي في التجارة الفعلية، منذ الألف الأول قبل الميلاد، أي أيام كان الفينيقيون يسيطرون على موانىء الشمال الافريقي بزعامة قرطاجة. ومع أن الاتصال التجاري بين الشمال الافريقي و«الساحل» قد تعثّر في أيام الرومان، فإنّه قد عاد إلى نشاطه في القرنين السادس والسابع للميلاد، ثم قوي لما فتح العرب تلك الرقعة، ودفعوا بالجمل إلى قلب الصحراء[2].

وتيسيراً لتتبع الأمور فيما بعد نضع بين يدي القراء وصفاً مقتضباً للطرق التي كانت تصل الشمال الأفريقي بالسودان الغربي عبر الصحراء الكبرى. كان ثمة ثلاثة طرق أولاً الطريق الغربي بين المغرب الأقصى وغرب افريقية عبر نهر السنغال ومجاري نهر النيجر العليا. والطريق الثاني كان يربط الجزائر بغرب افريقية عبر أواسط الصحراء. والطريق الثالث كان يتبعه تجار تونس والفزان (جنوب ليبيا) إلى كانم وبورنو. وكان لكل من هذه الطرق تفرعات، كما كانت الطرق ذاتها يقلّ استعمالها أو يزيد تبعاً للأحوال السياسية السائدة في الأطراف[3].

لما وصل العرب المسلمون إلى الشمال الافريقي، واستقروا هناك في القرن الأول للهجرة (السابع للميلاد) كانت التجمعات التي نشأت عن ذلك في المناطق الساحلية والمدن القريبة منها. وهذه الجماعات هي التي كانت سبيل انتشار الاسلام بين سكان تلك المناطق من أهل البلاد الأصليين. أما سكان المناطق الجبلية والصحراوية فلم يتركوا منازلهم، وكان اعتناقهم للإسلام أبطأ قليلاً، فضلاً عن ذلك فإنهم في غالبيتهم قبلوا مذهب الخوارج (الأباضية)، وكانوا، إلى درجة معيّنة، حرباً على الحكم العربيّ الاسلامي.

وفي القرن الخامس (الحادي عشر) جاء بنو هلال وبنو سليم إلى الشمال الأفريقي، وهؤلاء زحموا البربر الذين كانوا في الجبال والسهول (السهوب والصحراء على السواء) فخرجت جماعات من البربر إلى الصحراء الكبرى وموريتانيا، وهؤلاء بدورهم ضغطوا على سكان «الساحل» (جنوبي الصحراء). وقد ترتب على هذه الضغوط المختلفة قيام دول للدفاع عن المصالح التجارية في الصحراء والطرق التي تخترقها، وأخرى في السودان للغاية نفسها. وأهم ما كان يعنى به سكان السودان الغربي هو منع التجار الصحراويين من الوصول إلى المصدر الأصلي للذهب. وقد نجحوا في ذلك.

وإذا نحن أمعنا النظر في الخارطة الديمغرافية الحضارية للمنطقة الواقعة جنوبي الصحراء، لاستطعنا أن نضع اصبعنا على الأشياء التالية التي اتضحت معالمها قبل دخول العرب افريقية.

1 ـ كانت جماعات متحضرة مستقرة قد أخذت تظهر في «الساحل»، وكانت حياتها فيها زراعة وتعدين وصناعة. في هذه المنطقة قامت دولة غانا القديمة.

2 ـ إذا نحن اتجهنا في السودان الغربي من الغرب إلى الشرق وقعنا على جماعات ذات معالم عنصرية بينة وصفات اجتماعية واضحة نسبياً وهي: التَكْرور (في حوض السنغال) وتجمعات السوننكين والفورما وسُنْغاي (صُنغاي).

3 ـ كان من الطبيعي أن تقوم مدن صغيرة حول المراكز التجارية الرئيسية. ذلك بأن تمركز التجار والقوافل كان يقتضي أن يتجمع العمال اللازمون للعناية بالناس ودوابهم، كما كان من الضروري أن يظهر في هذه المراكز سماسرة ووكلاء تجاريون[4].

(2)

إن أكبر التجمعات البربرية (عنصرياً) في غرب الصحراء الكبرى كانت لَواتَة وصَنْهاجة وزَناتَة، وكانت كل من هذه تتبعها جماعات وعشائر متعددة. وقد كان لصنهاجة وفروعها الرئيسية (لَمْتونَة ومَسُّوفَة

وغُدالة) في القرن الثالث (التاسع) نفوذ كبير لأنها كانت تسيطر، ولو إلى درجة محدودة، على الطرق التجارية الغربية في الصحراء. لكن زَناتَة حالفت أمويّ الأندلس الأقوياء يومها، فتقوى نفوذها. وكانت غانَة السودانية (الغربية) قد برزت على المسرح السياسي والتجاري، فوجدت لَمْتونَة نفسها محشورة بين زناتة في الشمال وغانة في الجنوب، لذلك هاجمت مدينة أُوداغُشْت (في القرن نفسه)، واحتلتها، وبذلك ضمنت لنفسها حصة في الاتجار مع الشمال عن الطريق الأوسط. وظلت لمتونة تسيطر على هذه المدينة الهامة إلى أواخر القرن التالي إذ هاجمتها غانة واستولت عليها.

وقد كانت ثمة تنظيمات أو دول في حوض نهر السنغال هي التكرور وسيلاّ وصَنْغانَة وقَلَنْبو. وهذه الدول اعتنقت الاسلام تدريجاً (على ما سنرى). فالتكرور أسلموا على يد سلطانهم وارْجَابي (ت. 432هـ/1040م). ويبدو أن نفوذ هذا السلطان أو نفوذ التكرور هو الذي حمل الاسلام إلى أهل سيلاّ (سِلّي). ولكن هذا النفوذ لم يؤثر على أهل قَلَنْبو الذين ظلوا، حتى ذلك الوقت، على الوثنية.

والمنطقة التي كان يسكنها التكرور والسِلّيون هي المنطقة التي ظهرت فيها دولة المرابطين، لما اتخذ عبدالله بن ياسين لنفسه «رباطاً» قرب مصب نهر السنغال، حيث درّب جماعته، ثم خرج من رباطه (1042/434م) وبدأ العمل، وكان أن أنشأ دولة المرابطين (448-541هـ/1056-1147م). وقد احتل المرابطون أوداغُشْت (446-1054م) وعاصمة غانة (1076/469م) وحملوا سكانها على الاسلام. (أما دولة المرابطين واتجاهها شمالاً وإلى الأندلس، فأمر، على أهميته، غير مرتبط ببحثنا هذا)[5].

وقد قامت في السودان الغربي دول (يسميها مؤرخو غرب افريقيا أحياناً امبراطوريات) هي غانة ومالي وسُنْغاي (صنغاي) وكانِم ـ بورنو.

قامت دولة غانة في الساحل في المنطقة الواقعة بين حوض السنغال الأعلى ومجاري النيجر العليا. يبدو أن نشاطها أصلاً يعود إلى القرن الخامس للميلاد، وقد كان لموقعها على الطريق التجاري الذي يصل الشمال الافريقي بمصادر الذهب، أثر في ثرائها وقوتها، ففرض ملوكها (حوالى سنة 800م) سلطانهم على رقعة واسعة من الأرض شمالاً. واتخذت غانة (وعاصمتها كومبي صالح)[5] من مدينة أُوداغُشْت مركزاً تجارياً كبيراً[6].

ومالي (مَلّيل) بدأت دويلة اسمها كانْفابَه (كابا) قامت في حوض النيجر الأعلى. وكانت هذه تقع إلى الجنوب من غانة، التي خلفتها. فقد اعتنق أحد ملوك مالي الاسلام في أواسط القرن الخامس/الحادي عشر؛ وفي القرن السابع/الثالث عشر تغلبت مالي على غانة نهائياً، وقامت هناك دولة قوية غنية بتجارتها واستمرت على ذلك إلى حوالى 1400/800م، ثم بدأت تضعف حتى قضي عليها في 1470م[7].

وكانت قبيلة سنغاي تسكن حوض النيجر على مقربة من الغابات الاستوائية، وانتشرت في القرن السابع للميلاد في حوض النيجر الأوسط وكانت تعنى بزراعة الدخن وصيد الأسماك. وتوحدت تحت امرة جماعة غونغيا، وكانت مدينة كاوكاو (ولعلها هي غونغيا نفسها) تتسع تجارتها واتصالاتها. وكانت الفئة النافذة هنا مسلمة، وهي فئة التجار (مثل غانة ومالي اصلاً). ويبدو أن اعتناق هذه الجماعة للاسلام تم حوالى 1082/475م.

ولما اعتنق ملك سنغاي «زا» كوسى الاسلام نقل العاصمة إلى غاو (على النيجر). وفي أوائل القرن الثامن/الرابع عشر تولت أمور سنغاي اسرة سِني (سِنْ)، ووسعت حدودها على حساب مملكة مالي، وأخيراً قامت امبراطورية سنغاي التي استولت على المنطقة الغانية ـ المالية وغيرها (1464) وظلت قائمة إلى أن أرسل المنصور السعدي ملك المغرب

(986-1012/1578-1603)م) حملة إلى السودان الغربي فقضت على مملكة سنغاي[8].

مملكة كانم ـ بورنو قامت حول بحيرة تشاد، وكانت التجارة مصدر ثروتها وقوتها. ومع أن دويلة قامت في القرن الثالث/التاسع، فإن الدولة الهامة بدأت في أواسط القرن السابع/الثالث عشر، وتوسعت وقويت في القرون الثامن والتاسع والعاشر/الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر. وفي هذا القرن فرضت الشريعة الاسلامية على الامبراطورية الواسعة (في زمن ادريس)[9].

(3)

يحدثنا المقدسي، من أهل القرن الرابع/العاشر، عن اقليم المغرب، الذي يشمل عنده المنطقة الصحراوية من الجهات التي هي موضوع بحثنا، فيقول عنه «انه بعيد الأطراف كثير المفاوز صعب المسالك كثير المهالك، وفي زاوية الاسلام موضوع، وبعضه خلف البحر مقطوع، فلا فيه راغب ولا له ذاهب»[10]. ويقول ابن حوقل «وما أوْغَل في براري سِجِلماسَة وأوداغُشْت ونواحي لَمْطَة وتادْمَكّة إلى الجنوب ونواحي فزان، ففيه مياه عليها قبائل من البربر المهملين الذين لا يعرفون الطعام ولا رأوا الحنطة ولا الشعير ولا شيئاً من الحبوب. والغالب عليهم الشقاء والاتّشاح بالكساء وقوام حياتهم باللبن واللحم»[11].

ولعل خير ما يوضح للقارىء اتساع هذه المنطقة التي نتحدث عنها هو ذكر المسافات بين مكان وآخر على سبيل التمثيل. فإذا أخذنا سِجلماسه، وهي نقطة الانطلاق من جنوب المغرب الأقصى نحو الصحراء، وجدنا أنها تبعد عن أوداغُشْت سير شهرين، ومن هذه إلى غانة بضعة عشر يوماً ومن غانة إل كوغه شهر ثم إلى سامة نحو شهر ومنها إلى كوكو شهران. ومن أوداغُشت إلى أوليل شهر ومنها إلى سِجلماسة شهر[12]. وحتى مع هذا فنحن لم نجتز الصحراء من أولها تماماً إلى نهايتها، وإنما هو تنقل في داخلها. ومع ذلك فقد كان بين سكان هذه المدن، على تباعد الديار، اتصال، سلماً وحرباً، «فملك أوداغُشْت يخالط ملك غانة، وغانة أيسر من على وجه الأرض من ملوكها بما لديه من الأموال والمدّخرة من التبر... ويهادي [أي ملك أوداغُشْت] صاحب كوغه، وليس كوغَه بقريب من صاحب غانه في اليسار وحسن الحال، ويهادونه». ولكن لماذا يحرص هؤلاء الحكام على الحفاظ على الصلة الطيبة بملك أوداغشت؟ والجواب عند ابن حوقل إذ يقول: «وحاجتهم [أي مختلف أصحاب المناطق والحكام] إلى ملوك أوداغُشْت ماسة من أجل الملح الخارج إليهم من ناحية الاسلام. فإنه لا قوام لهم إلّا به. وربما بلغ الحمل (كذا) الملح في دواخل بلد السودان وأقاصيه ما بين مائتين إلى ثلاثمئة دينار»[13].

وتوزُّع القبائل البربرية في الصحراء، والجزء الغربي منها خاصة، وهو الذي يعنينا الآن، تحدّث عنه ابن حوقل في غير موضع من كتابه **صورة الأرض**. فقد قال: «والبربر السكان بالمغرب فقبائل لا يُلحق عددهم، ولا يُوقف على آخرهم، لكثرة بطونهم وتشعّب أفخاذهم وقبائلهم وتوغّلهم في البراري وتبدّدهم في الصحاري... ومن المتعزّبين الموغلين في البراري صنهاجَةُ أوداغُشْت... وقد يكونون نحو ثلاثمائة ألف بيت من بين نَوَالة وخُصّ... وبين أوداغُشْت وسِجِلْماسة غير قبيلة من قبائل البربر، متعزّبون لم يروا قط حاضرةً ولا عرفوا غيرَ البادية العازبة، فمن ذلك بنو مسُّوفا، قبيل عظيم من المقيمين بقلب البرّ على مياه غير طائلة، لا يعرفون البرّ ولا الشعير ولا الدقيق، وفيهم من لم يسمع بهما (كذا) إلّا بالمثل. وأقواتهم الألبان وفي بعض الأوقات اللحم. وفيهم من الجَلَد والقوّة ما ليس لغيرهم»[14].

إلى جانب هؤلاء البربر الذين لا يعرفون القمح

ولا الشعير، نجد أن الصحراء، بسبب اتساعها، فيها بربر من نوع آخر. «ومن بأداني سِجِلْماسة والمغرب من البربر يأكلون البر ويعرفون الشعير ويزرعونه والتمور والطيبات... وفي كثير منهم ألوان حسنة ومحاسن فائقة في خلقهم، وأبدان نقيّة، حتى يأخذوا في جهة الجنوب فتستحيل أبشارهم وألوانهم»[15].

وقد ذكر بعض المؤلفين أموراً عن البربر من حيث عاداتهم، وسيرى القارىء أن حتى القليل الذي ننقله فيه خلاف في الرأي، وهذا أمر طبيعي بالنسبة لجماعات شغلت هذه الرقعة الواسعة من الأرض وتعرضت للاختلاط بعناصر بشرية مختلفة، جاءت المنطقة من حوض البحر المتوسط ومن أواسط القارة الافريقية ومن المشرق، واختلطت فيما بينها على مدى قرون وقرون.

فقد ذكر المقدسي أن البربر لهم برانس سود وأهل الرساتيق (القصبات) باكسية[16]. وروى ابن حوقل عن بربر المغرب ما يأتي: «وأكثر بربر المغرب الذين من سجلماسة إلى السوس... يضيفون المارّة ويطعمون الطعام، ويتخلق قوم منهم بخلق ذميم من بذل أنفسهم لاضيافهم في سبيل الإكرام ولا يحتشمون من ذلك». ويقول عن البربر الذين يقيمون بين أوداغُشْت وسِجِلْماسة انهم يملكون «البسالة والجرأة والفروسيّة على الإبل والخفة في الجري، والشدة والمعرفة بأوضاع البر وأشكاله والهداية فيه، والدلالة على مياهه بالصفة والمذاكرة... ولهم خلق تام وحول وجلد عام في نسائهم ورجالهم. ولم يُرَ لأحدهم ولا لصنهاجة منذ كانت من وجوههم غير عيونهم؛ وذلك لأنهم يتلثّمون وهم أطفال،وينشؤون على ذلك، ويزعمون أنّ الفم سوءة «تستحق الستر كالعورة لما يخرج منه. إذ ما يخرج منه عندهم أنْتَنُ مما يخرج من العورة»[17].

ابن حوقل والمقدسي كانا من كبار الجغرافيين العرب، وهما من أهل القرن الرابع/العاشر. وقد زار ابن حوقل أوداغُشْت سنة 951/340م، أما المقدسي فقد نقل عن الرواة الذين وثق بهم، لكنه لم يزر المناطق الصحراوية في افريقية. وأما البكري، فقد ذكر في كتابه المعروف بـ **المسالك والممالك**، وذلك في أواسط القرن الخامس/الحادي عشر، أموراً كثيرة عن البربر. وهي في غالبيّتها تدلّ على أنّ الصّفاتِ الأساسيّة لتلك الجماعات لم تتبدّل خلال المئة سنة التي مرت بين ابن حوقل والبكري. إلاّ أننا نعثر على تفاصيل أوفى في ما أورده البكري. فهو يحدثنا عن بني مَسّوفة، وهم قبيل من صنهاجة، فيقول:

«... قبيل من صنهاجة يعرفون ببني لَمْطونة (لَمْتونة) ظواعن رحّالة في الصحراء، مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين، ما بين بلاد السودان وبلاد الاسلام [أي المغرب] ويصيفون في موضع يسمى أَمَطْلوس وآخر يسمى تاليُوين. وهم إلى بلاد السودان أقرب، بينهم وبين بلاد السودان نحو عشر مراحل. وليس يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا خبزاً إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن. ينعقد عمر أحدهم وما رأى خبزاً ولا أكله، إلاّ أن يمر بهم التجار من بلاد الاسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق»[18].

ويقول البكري في موضع آخر: «وجميع قبايل الصحراء يلتزمون النقاب وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه إلاّ محاجر عينيه، ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال، ولا يميّز رجلٌ منهم وليَّه ولا حميمَه إلاّ إذا تنقّب. وكذلك في المعارك إذا قُتِل منهم القتيل وزال قناعه لم يُعلم من هو حتّى يعادَ عليه القناع. وصار ذلك ألزم لهم من جلودهم. وهم يسمّون من خالف من جميع الناس «أفواه الذبّان» بلغتهم. وطعامهم صفيف اللحم الجاف مطحوناً يُصبّ عليه الشحمُ المذابُ أو السمن. وشرابهم اللبن قد غُنوا به عن الماء. يبقى الرجل منهم الأشهر لا يشرب ماءً»[19].

وقد نقل البكري عن أهل تَـادْمَكّه، وهي مركز تجاري كبير على الطريق بين حوض النيجر وشمال الصحراء، أن أهل هذه المدينة هم من قبيل مَدَاسَة في غالبهم. ويضيف: «وتادْمَكّه... مدينة كبيرة بين جبال وشعاب، وهي أحسن بناء من مدينة غانة ومدينة كُوكَوا. وأهل تادْمَكّه بربر مسلمون، وهم يتنقبون كما يتنقّب بربر الصحراء، وعيشهم من اللحم واللبن، ومن حب تنبتُه الأرض من غير اعتمال. ويُجلب إليهم الذرة وسائر الحبوب من بلاد السودان. ويلبسون الثياب المصبّغة بالحمرة من القطن والنولي وغير ذلك. وملكهم يلبس عمامةً حمراء، وقميصاً أصفر وسراويلِ زرقاء. ودنانيرهم تسمى «الصلع» لأنّها ذهبٌ محضٌ غير مختومة. ونساؤهم فايقات الجمال لا تعدل بهن أهل بلد حسناً. والزنا عندهم مباح. وهنّ يبادرن التجار أيّتهنّ تحمله إلى منزلها»[20].

ننتقل الآن مع ابن حوقل والبكري إلى بلاد السودان، وما يرد عند الأول منهما قليل، لكن الثاني، يزوّدنا بمعلوماتٍ كثيرةٍ عن بلاد السودان وأهلها. وحري بنا أن نتذكر أنّ ما يرد عند هؤلاء الكتّاب من أوصاف عامّة قد لا تنطبق على كل قبيلة أو جماعة، لكنها تضع أمامنا صورة قد تكون جامعة ولو أنها مجزّأة.

فابن حوقل يقول عن السودان، وهو يقصد أهلَ السودان الغربي في هذا: «... ولهم الخيلُ النفيسةُ من البراذين والبغال الفُرْهِ والإبل والغنم وما لديهم من ماشية البقر وجميع الحيوان الرخيص. فأمّا أسعارهم، على تنائي مدنهم وديارهم، فعلى غاية الرخص في الأطعمة والأغذية والأشربة واللحمان والأدهان، ولهم من جيد الفواكه والثمور والأرطاب وسائر الأغذية. وعندهم من الجمال الكثيرة في براريّهم وسكّان صحاريهم التي لا تدانيها في الكثرة إبل العرب.

«هذا إلى طاعتهم لملكهم... وليس في بلدانهم من الفواحش الظاهرة وتعاطي الأمور المنكرة كالعيدان والطنابير والمعازف والنوائح والقيان والمخنّثين والفسق الشنِيع ما بكثير من المواضع. وقد يعرض في بعض نواحيهم من التهوّر الشديد والجنون العتيد وبذل السيف وبذار الطيش»[21].

أما البكري فمعلوماته عن السودان وأخباره عن دوله وملوكه أوفى وأوفر. فهو ينبئنا أن بني غُدالة (جُدالة) هم آخر الاسلام خطة وأقرب إلى بلاد السودان، فالمسافة بين المدينتين اللتين تخصّان الفريق الواحد أو الآخر تقطع في ستة أيّام فقط. فمدينة تكرور أهلها سودان. «وكانوا على ما ساير السودان عليه من المجوسيّة وعبادة الدّكاكير [الأصنام]، حتّى ولي أمرَهم وارْجابي... فأسلم وأقام عندهم شرايع الاسلام...». وتسير من مدينة تكرور إلى مدينة سِلّى [سيلاّ] وأهلها مسلمون. «وبين سِلّى ومدينة غانة مسيرة عشرين يوماً في عمارة السودان القبيلة بعد القبيلة... والبقر عندهم كثير وليس عندهم ضان ولا مَعِزْ. وأكثر نبات أرضهم الأبنوس ومنه يحتطبون... [ثم نصل] مدينة قَلَنْبو... وأهلها مشركون... [وفي] بلد زافْقو صنف من السودان يعبدون حيّة كالثعبان العظيم»[22].

(4)

ليسمح لنا القراء أن نضع هنا ثبتاً تاريخياً مختصراً يتعلّق بالمناطق السودانيّة التي سنمر بها مع ابن بطوطة بشكل خاص.

1 ـ انتشار الاسلام في إطار الدول السودانية

إسلام تكرور وسيلاّ (سِلّى)، أوائل القرن الخامس/الحادي عشر.

إسلام أُوداغُشْت (على أيدي المرابطين) لما احتلوها سنة 1054/446م.

إسلام غانة (عاصمة الدولة) على أيدي المرابطين

لما احتلوها سنة 1076/469م.

إسلام مالي (وهي بعد دولة في أول أمرها ولم تصبح واسعة. الملك أواسط القرن الخامس/الحادي عشر على يد الملك بَرَمَنْدانا

إسلام سنغاي على يد «زاكوسى»

حوالى سنة 1082/475م.

2 ـ أحداث غانة الهامة

إنشاء الدولة، 800م.

احتلال أوداغُشْت، 380هـ/990م

عصرالازدهار، القرن الخامس/الحادي عشر

بدء الضعف، بعد احتلال المرابطين للعاصمة غانة 1076/469م

القضاء على غانة، 1203/600م على يد مالي

(هجرة التجار إلى ولاّطة).

3 ـ أحداث مالي

أسرة كياتا تقوّي الدولة، القرن الثالث/التاسع

دولة ذات شأن، القرن الرابع/العاشر

دولة مالي الكبيرة: تأسيسها على يد سانْدِياتا (628-1230/653-1255).

عصر الازدهار، القرن الثامن/الرابع عشر

بدأ الضعفُ حوالى 1400/800م

انتهاء الدولة ـ احتلال سن علي (ملك سنغاي) تنبكتو وجنّي 1468 و1470م[23].

وابن بطوطة، وهو الآن دليلنا في الأصقاع السودانيّة (بعد أن اجتاز الصحراء الكبرى) قام بهذه الرحلة في سنتي 753-1352/754-1353م. وكان شيخ رحّالات العصور الوسطى وإمام الرحّالات العرب إطلاقاً، قد قام برحلة إلى مشارق الأرض (حتى الصين وأندونوسيا بين 725 و1325/750م و1349م. ثمّ بعد أن هبط فاس في أيام بني مرين قام برحلتين واحدة إلى الأندلس والثّانية كانت رحلة ـ سفارة إلى السودان نيابة عن السلطان أبي عنان المريني (749-1348/759-1359م) إلى ملك مالي (مَلِّيل، ملّي) منسى سليمان (742-1341/761-1360م).

خرج ابن بطوطة من فاس إلى سِجلماسَة، حيث بدأت سفرته وانتقل بعد ذلك إلى تَغازَى فايوالاطِن (وَلاَّطَة) فمالي، وعاد من مالي بطريق تَنْبُكْتو فتُوات فسِجِلماسَة. وقد خلف لنا وصفاً دقيقاً لرحلته، خاصة وأنها كانت لا تزال حديثة العهد بالنسبة لرحلاته السابقة في بلاد المشرق البعيد. والّذي نودّ أن نفعله الآن هو أن نتناول المدن التي عرفت في الصحراء وبلاد السودان لدى كل من ابن حوقل والبكريّ وابن بطّوطة، لنرى التطوّر الذي أصابها من حيث انها مجتمعات بشريّة لا من حيث هي مدن ذات أسوار وأسواق وأكواخ وقصور فقط.

(1) سِجِلماسَة: ينعتها المقدسي بالمختارة الفريدة[24]، ثم يقول عنها: «قصبة جليلة... وهي طولانيّة نحو القبلة. عليها سور من طين، وسطها حصنٌ يسمى «العسكر» فيه الجامع ودار الإمارة. شديدة الحرّ والبرد جميعاً، صحيحة الهواء كثيرة التمور والأعناب والزّبيب والفواكه والحبوب والرمّان والخيرات. كثيرة الغرباء موافقة لهم يقصدونها من كل بلد... برستاقِها [المناطق التابعة لها اداريا واقتصادياً] معادن الذهب والفضة. وهم أهلُ سنَّة وقومُ جهاد، بها علماء وعقلاء»[25]، وهذه رواية سماع لكن ينقلها رجل معروف عنه أنه كان يدقق فيما ينقل.

أما ابن حوقل فقد زارها حوالي الوقت الذي زار فيه أوداغُشْت (340/951م)، وهو يعطينا وصفاً فيه معلومات أوفى. يقول: «وسِجِلماسَة مدينة حسنة الموضع جليلة الأهل فاخرة العمل، على نهر يزيد في الصيف كزيادة النيل... فيُزرع بمائه حسبَ زروع مصر في الفلاحة. وربّما زرعوا سنة عن بذر وحصدوا ما راع من زرعه، وتواترت السنون بالمياه، فكلّما أغدقت تلك الأرض سنة في عقب سنة أخرى حصدوه إلى سبع سنين، بسُنْبل لا يشبه سنبل الحنطة

ولا الشعير، بحبٍّ صلب المكسر لذيذ المطعم . . . ولها نخيل وبساتين حسنة وأجنّة، ولهم رطب أخضر من السلق في غاية الحلاوة. وأهلها قومٌ سراةٌ مياسير يُباينون أهلَ المغرب في المنظر والمخبر، مع علمٍ وسترٍ وصيانةٍ وجمالٍ واستعمالٍ للمروءة وسماحةٍ ورجاحةٍ[26].

ويعود إلى التحدّث عن سِجلماسَة فيقول: . . . [لها] تجارة غير منقطعة منها إلى بلد السودان وسائر البلدان، وأرباح متوافرة ورفاق متقاطرة، وسيادةٌ في الأفعال وحسن كمال في الأخلاق والأعمال. ويخرجون برسومهم عن دقّة أهل المغرب في معاملاتهم وعاداتهم إلى عملٍ بالظاهر كثير، وتقدّمٍ في أفعال الخير شهير، وحنوٍّ بعضٍ على بعضٍ من جهة المروءة والفتوّة. وإن كانت بينهم الحِنَات والتّرَات القديمة تواضعوها عند الحاجة واطّرحوها رياسةً وسماحةً وكرمَ سجيّة تختصهم، وأدب نفوس وقف عليهم بكثرة أسفارهم وطول تعزُّبهم عن ديارهم وتغرُّبهم من أوطانهم. ودخلتها سنة أربعين [وثلاثمائة] فلم أرَ بالمغرب أكثر مشايخ في حسن سمت وممازجة للعلم وأهله إلى سعة نفوس عالية وهمم سامقة سامية. وسائر أرباب المدن دونهم في اليسار وسعة الحال. وتتقارب بالعصبيّة أوصافهم، وتتشاكل أحوالهم. ولقد رأيت بأوداغُسْت [أوداغُشْت] صكًّا فيه ذكر حق لبعضهم على رجل من تجار أوداغُسْت وهو من أهل سِجلماسَة باثنين وأربعين ألف دينار. . . وأميرها يجتبيها من قوافل خارجة إلى بلد في السودان وعُشْرٍ وخراج وقوانين قديمة على ما يُباع فيها ويشترى من إبلٍ وغنمٍ وبقر إلى ما يخرج عنها، ويدخلها من نواحي إفريقية وفاس والأندلس والسوس وأغْمات [من القوافل] إلى غير ذلك مما على دار الضرب والسكةِ زهاء أربع مائة ألف دينار تختص بها وبعملها»[27].

وسِجلماسَة خُطِّطَ لها، وبُدىء العملُ في بنائها سنة 757/140 لما اختار بنومِدْرار عيسى بنَ يزيد إماماً لهم وبذلك قامت الدولة المدرارية. واتُّخِذَت سِجلماسَة مقرًّا للإمارة. وقد أقام بنو مِدْرار العاصمة في مكانٍ حصينٍ كثير الماء. وكان الحصنُ، وفيه المسجدُ الجامعُ ودارُ الإمارة نواةَ المدينة وتحصيناتها. وقد أتمّ العمل في سِجلماسَة إلْيَسَعُ الملقب بأبي المنصور (174-208/790-823). وقد أخرج محمود اسماعيل عبدالرزاق أن الحروب الكثيرة والخلافات الداخليّة أحدثت أضراراً بسِجلماسَة قبل إلْيَسَع وفي سنواته الأولى. لذلك أقدم إلْيَسَع (أبو المنصور) على إخلاء المدينة وإعادة تخطيطها. فرُوي أنّه أمر القبائل بمبارحة سِجلماسَة وسكنى الصحراء ثم أعاد بناء مسجدها الجامع واختط بها المصانعَ والقصور حتى استردّت بهاءها وزينتها، وشرع في تحصينها ببناء سور جديد. . . وقد بنى أسفله بالحجارة وأعلاه بالطوب. . . ولما انتهى من إتمام تعميرها أعاد تقسيم خططها على القبائل بما يكفل له الهيمنة على سائر أجزائها والسيادة على كافّة سكانها[28].

وبسبب موقعها على أكثر من طريقٍ تجاريّ وخاصّة لارتباط تجارة الأندلس بها اتسعت وقويت وأثْرت. وهذا وصف ابن حوقل لها (لما زارها 340/951م) يؤيد ذلك؛ مع أن الفاطميين قضوا على إمارة بني مدرار، واحتلوا سِجلماسَة (297/909م). فالظاهر أن هذا لم يؤد إلى ضعضعتها. وحتى البكري يحدّثنا عنها حديث المدينة الغنيّة (وقد كتب في أواسط القرن الخامس/الحادي عشر). على أنّ الخلاف استحكم بين سِجلماسَة والفاطميين، فأرسل هؤلاء حملةً ضدّها بقيادة جوهر (347/960م). ومع أن الخليفة الفاطمي المعزّ (341-365/953-975م) عفا عن زعماء المدينة، فقد ظلّت الأحقاد تعمل في الصدور. وفي سنة 352/965م زال نفوذ الفاطميين عن سِجلماسَة، لكنّ هذه لم تستطع الوقوف وحدها، فتبعت أمويي الأندلس[29].

ولنعد الآن إلى ما رواه البكريّ عن سِجلماسَة. فقد قال: «ومن الغرايب عندهم أن الذهب جزاف

عددٌ بلا وزن والكرّاث يتبايعونه وزناً لا عدداً. ويُزرع بأرض سِجِلماسَة عاماً ويُحصد من تلك الزرّيعة ثلاثة أعوام، لأنه بلد مفرط الحر شديد القيظ، فإذا يبس زرعهم تناثر عند الحصاد، وأرضهم متشققة، فيرتفع ما تناثر منه في تلك الشقوق، فإذا كان في العام الثاني حُرِثَ بلا بذر وكذلك في العام الثالث»[30].

أما أوداغُشْت فقد وصفها البكري بقوله: «وهي مدينة كبيرة... بها جامع ومساجد كثيرة آهلة، وفي جميعها المعلمون للقرآن. وحولها بساتين النخل ويُزدرع فيها القمح بالفوس [الفؤوس] ويُسقى بالدلاء، ويأكلُه ملوكهم وأهلُ اليسار منهم. وسائر أهلها يأكلون الذرة. والمقاثي تجود عندهم، وبها شجيراتُ تين يسيرةٌ ودوالٍ يسيرةٌ أيضاً، وبها جنانُ حنّاء لها غلّة كبيرة... والغنم والبقر أكثر شيء عندهم... وعسلها أيضاً كثير يأتيها من بلاد السودان. وهم أرباب نِعَمٍ جزلة وأموال جليلة. وسوقُها عامرة الدّهر كلّه... وتبايعهم بالتبر وليست عندهم فضة. وفيها مبانٍ حسنةٌ ومنازل رفيعة... [لكن] أمراض أهلِها الحمّيات والطّحال. ويجلب إليها القمح والتمر والزبيب من بلاد الإسلام... ويُتجهّز إلى أوداغُشْت بالنحاس المصنوع وبثياب مصبّغة بالحمراء والزُرقة مجنحة... وذهب أوداغُشْت أجود من ذهب أهل الأرض وأصحّه». وبعد أن يحدّثنا حديثَ التاجر، ينتقل ليخبرنا عن النساء في أوداغُشْت، فيقول: «وبها سودانيّات طبّاخات محسنات تباع الواحدة منهن بمئة مثقال وأكثر...». وبعد ذلك يوجّه همّه إلى حسناوات المدينة فيقول: «وبها جوار حسان الوجوه بيض الألوان منثنيات القدود، لا تنكَسِرُ لهن نهود. لطاف الخصور ضخام الأرداف واسعات الأكتاف... ترقد [المرأة منهن] على جنبها إشفاقاً من الجلوس على أردافِهنّ»[31].

ولما وصل ابن بطّوطة سِجِلماسَة قال عنها:

«فوصلت إلى مدينة سِجِلماسَة وهي من أحسن المدن وبها التمر الكثير الطيّب... واشتريت بها الجمال وعلفتها أربعة أشهر ثمّ سافرت في غرّة شهر المحرم سنة ثلاث وخمسين [وسبعمائة]».

(5)

مر ابن بطوطة بتَغازَى، وهي مدينة الملح ثم بأيوالاتِن وهي أول عمالة السودان التي وصلها بعد شهرين من مغادرته سِجِلماسَة. قال: «ولما وصلناها جعل التجار أمتعتهم في رحبةٍ وتكفّل السودان بحفظها وتوجّهوا إلى الفَرْبا حسين [نائب السلطان] وهو جالس على بساط في سقيفه وأعوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقسيّ، وكبراء مسّوفة من ورائه. ووقف التجار بين يديه وهو يكلّمهم بترجمان على قربهم منه احتقاراً لهم. فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض»[32].

وما دمنا قد دخلنا بلاد السودان فإنه يترتّب علينا أن نعود إلى البكريّ، جغرافيّ القرن الخامس/الحادي عشر، الذي يزوّدنا بمعلومات كثيرة عن تلك المناطق النائية. يقول عن غانة: «وغانة سمةٌ لملوكهم واسم البلد أوكاد [إن غانَة هي صفةُ الملك واسمُ المدينةِ والمملكةِ، وكانت أوكاد عاصمتَها الأولى] وملكهم اليوم، وهي سنة ستين وأربعمئة، [هو] تَنْكامِنين، وهو ابن أختِ الملك السابق (بِسي]. وتلك سيرتهم ومذهبهم أنّ المُلكَ لا يكون إلاّ في ابن أخت الملك، لأنه لا يشكّ فيه أنّه ابن أخته، وهو يشكّ في ابنه، ولا يقطع على صحة اتصاله به. وتَنْكامِنين هذا شديد الشوكة عظيم المملكة مهيب السلطان.

«ومدينة غانة مدينتان سهليتان أحدهما المدينة التي يسكنها المسلمون وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً أحدها يُجمعون فيه، ولها الأيمّة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء وحملة علم. وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يَعْتَمِلون الخضراوات.

ومـدينـة الملك عـلى ستـة أميـال من هـذه، وتسمّى بالغابـة، والمساكن بينهـا متصلة. ومبانيهم بـالحجارة وخشب السنط. وللملك قصـور وقباب، وقـد أحاط بـذلك كلّه حـايط كالسـور. وفي مدينـة الملك مسجدٌ يصلي فيه من يفـد عليه من المسلمـين على مقـربة من مجلس حكم الملك، وحول مدينة الملك قباب وغابات وشَعْراء [الغابة وقد تكـون من شجر الحمض] يسكن فيهـا سحـرتُهم، وهم الـذين يقيمـون دينهم وفيهـا دكاكيرهم [أصنامهم] وقبور ملوكهم. ولتلك الغابات حرس لا يمكن أحد من دخـولها ولا معـرفة مـا فيها. وهناك سجون الملك فإذا سُجن فيها أحـد انقطع عن الناس خبره.

«وتراجمة الملك من المسلمين وكذلـك صاحب بيت مـاله وأكـثر وزرائه. ولا يلبس المخيطَ من أهـلِ دِينِ الملكِ غـيرُه وغيرُ وليّ عهـده وهـو ابن أختـه. ويلبس ساير الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم. وهم أجمع يحلقون لحاهم، ونسـاؤهم يحلقن رؤوسهن، وملكهم يتحـلّى بحـلي النسـاء في العنق والذراعين، ويجعل على رأسه الطراطير المذهّبة عليها عمايم القطن الرفيعة.

«وهـو يجلس للناس والمـظالم في قبة ويكـون حوالى القبة عشرة أفراس بثيـاب مذهّبـة، وراء الملك عشرة مـن الغـلمان يحمـلون الحجـف والسيـوف المحـلاّة بـالـذهب، وعن يمينـه أولاد ملوك بلده... ووالي المدينة بـين يدي الملك... وحـواليه الـوزراء جلوساً على الأرض. وعلى باب القبّة كلاب... تحرسه.

«وإذا مات ملكُهم عقدوا له قبّةً عظيمةً من خشب الساج ووضعوها في موضع قبره، ثم أتوا به على سرير قليلِ الفرشِ والوطا، فأدخلوه في تلك القبّة ووضعوا معه حليته وسلاحه وآنيته... وأدخلوا فيها الأطعمـة والأشربـة وأدخلوا معه رجـالاً ممن كان يخـدم طعامـه وشرابَـه، وأغلقـوا عليهم بـابَ القبّـة، وجعلوا فـوق القبّة الحصر والأمتعة ثم اجتمع الناس فـردموا فـوقها بالتراب»[33].

ويؤخذ مما نقله البكري عن بعض المدن الواقعة في حدود مملكة غانة أن أهل كوغَة (وتسمى أيضاً كَـاكَاوْ وغُوَا)، وهي على بعـد خمس عشرة مرحلة من غـانة، أهلها مسلمون وحـواليها المشركـون. وأكثر مـا يُتَجَهّزُ إليهـا بالملح والـودع والنحاس و[معـدن] الفربيـون؛ والـودع والفربيـون أنفق شيء عندهم. وحـواليها من معادن التبر كثير، وهي أكثر بلاد السودان ذهباً[34].

وقد أورد البكريّ أموراً ثلاثـة عن أهل الصحـراء وعن مملكة غانة فيها طرق خاصّـة لاكتشاف المجـرم - المتهم أو الشخص الذي له الحق في العرش. أما فيما يتعلق بهـذا الأمـر فقـد قـال عن أهـل زافْقُـو الـذين يعبدون حيَّةً كـالثعبان العـظيم. «فإذا هلك والٍ من ولاتهم جمعوا كلَّ من يصلح للمملكة وقربوهم إليها، وتكلّموا بكلامٍ يعلمونه. فتـدنو الحيّـة منهم فلا تـزال تشمّهم رجـلاً رجلاً حتى تنكـز أحدهم بـأنفها. فـإذا نكـزتـه ولّت إلى المغـارة فيتبعهـا ذلـك المنكـوز... ليجـذبَ من ذنبها أو عـرفهـا بـأشـدّ مـا يقـدر عليـه شعـرات، فتكون مـدةُ ملكِه بعـددِ تلك الشعـراتِ، لكلّ سنةٍ شعرةً»[35].

«ومن سـير أهـل الصحـراء في المتّهم بسرقـة أن يعمدوا إلى عودٍ [من شجرٍ معيّن] فيشقّ باثنينْ ويُشـدّ على صدغيه في مقدّم رأسـه ومؤخّره، فـلا يتمالـك أن يقرّ ولا يصبر على ذلك الضغط لحظة لشدته»[36].

ويقول عن بلاد غانة، بالنسبة لاثبات التهمة، مـا يلي: «وببلاد غـانة حكم المـاء. وذلك أنـه من أُدُّعي عليه بمالٍ أو دمٍ أو غـير ذلك، عمـد أمينُهم إلى عودٍ [من صنف معروف] فيه حرافةٌ ومـرارةٌ وزُقَةٌ، وصبّ عليه من الماء قدراً ما وسقاه المدّعى عليـه. فإن رمـاه من جـوفه عُلِم أنـه بري وهنّي بـذلك، وإن لم يـرمـه وبقي في جوفه صحّت الدعوى عليه»[37].

وقد كانت مالي، أيامَ وضع البكريُّ كتابه المعروف

بالمسالك والممالك، بلدة كبيرة فقط. لذلك فإنه لا يتحدث عنها بكثير من التفصيل فقد كانت غانة المملكة. وأهم ما يورده هو أن ملكاً من ملوكها أسلم بتأثير ضيف من المسلمين كان عنده. وقد صحّ إسلام الملك فأمر بكسر الدكاكير وإخراج السحرة من بلاده. ولكنّ أهل مملكته ظلوا مشركين فوسموا ملوكهم بالمسلماني[38].

(6)

كانت ايوالاتن (ولاّطة) أوّل مدينةٍ سودانيّةٍ وصلها ابن بطّوطة. وقد مرّ بنا وصفُه لملكها في مجلسه. وينتقل الرحالة إلى التحدث عن أيامه في تلك المدينة فيقول:

«ثم إن مشرف ايوالاتن ويسمى مَنْشاجو استدعى من جاء في القافلة إلى ضيافته، فأبيتُ من حضور ذلك. فعزم الأصحاب عليّ أشد العزم فتوجّهت فيمن توجّه. ثم أتى بالضيافة وهي جريشُ إنلي مخلوطاً بيسير عسل ولبن، قد وضعوه في نصف قرعة صيّروه شبه الجفنة، فشرب الحاضرون وانصرفوا... وأردت أن أسافر مع حجّاج ايوالاتن ثم ظهر لي أن أتوجّه لمشاهدة حضرة ملكهم. وكانت إقامتي بايوالاتن نحو خمسين يوماً... وبلدةُ إيوالاتن شديدة الحرّ وفيها يسيرُ نخيلات يزدرعون في ظلالها البطيخ ومآؤهم من إحساء بها. ولحم الضأن كثير بها، وثياب أهلها حسان مصريّة وأكثر السكان بها من مسّوفة ولنسائهم الجمال الفائق وهن أعظم شأناً من الرجال...»[39].

ومن ايوالاتن سافر ابن بطّوطة إلى مالي، وذلك لمقابلة سلطانها في مهمة لأبي عنان سلطان المغرب، والمهمة أو السفارة هي استكمالٌ لسفارةٍ جاءت مالي من المغرب أيام سلفي الملكين المتعاصرين. وملك مالي يوم زارها ابن بطّوطة هو مَنْسَى سليمان (742-762/1341-1360م).

يقول ابن بطولة عن سفره: «ولما عزمت السفر إلى مالي وبينها وبين ايوالاتن مسيرة أربعة وعشرين يوماً للمجدّ، اكتريت دليلاً من مسّوفة إذ لا حاجة إلى السفر في رفقة إلاّ من تلك الطريق، وخرجت في ثلاثة من أصحابي. وتلك الطريق كثيرةُ الأشجار، وأشجارها ضخمة يستظل القافلة بظل الشجرة منها، وبعضها لا أغصان لها ولا ورق ولكن ظلّ جسدها بحيث يستظل به الإنسان. وبعض تلك الأشجار قد استأسَنَ داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكأنها بئر، ويشرب الناس من الماء الذي فيها. ويكون في بعضها النحل والعسل، فيشتاره الناس منها. ولقد مررت بشجرة منها فوجدت في داخلها رجلاً حائكاً قد نصب بها مرمّته وهو ينسج فعجبت منه... وفي أشجار هذه الغابة التي بين ايوالاتن ومالي ما يشبه ثمرة الأجاص والتّفاح والخوخ والمشمش وليست بها. وفيها أشجار تثمر شبه الفقوص فإذا طاب انفلق عن شيء شبه الدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويباع بالأسواق. ويستخرجون من هذه الأرض حبات كالفول فيقلونها ويأكلونها وطعمها كطعم الحمّص المقلوّ وربّما طحنوها وصنعوا منها شبه الأسفنج وقلوه بالغَرْتي، وهو ثمر كالإجاص شديد الحلاوة... ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع: فمنها أنّهم يطبخون به ويُسرجون السّرج ويقلون به هذا الاسفنج ويدهنون به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطّحون به الدور كما تسطّح بالجير. وهو عندهم كثير متيسّر، ويُحمل من بلد إلى بلد في قرع كبار تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلّة ببلادنا. والقَرع ببلاد السودان يعظم ومنه يصنعون الجفان؛ يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنتين وينقشونها نقشاً حسناً. وإذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرشه وأوانيه التي يأكل ويشرب فيها وهي من القرع.

والمسافر بهذه البلاد لا يحمل زاداً ولا إداماً، ولا ديناراً ولا درهماً، إنّما يحمل قطع الملح وحليّ الزجاج

الذي يسميه الناس النَظْم، وبعض السلع العطريّة، وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمِصْطكى وتاسر غنت وهو بخورهم. فإذا وصل قرية جاء نساء السودان بأثلي واللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفوني، وهو كحب الخردل يصنع منه الكسكسو والعصيدة، ودقيق اللوبياء، فيشتري منهن ما أحب من ذلك. . . وبعد مسيرة عشرة أيام من إيوالاتن وصلنا إلى قرية زاغري، وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسكن معهم جماعة من البيضان[40].

(7)

وأخيراً وصل ابن بطّوطة إلى مكانٍ يبعد، حسب تقديره، عشرة أميال من مالي. ويتحدث عما جرى له بقوله: «وعادتهم أن يُمنع الناس من دخولها [مالّي] إلاّ بالاذن. وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيض ليكتروا لي داراً. فلمّا وصلت النهر [الذي يُجتاز للوصول إليها] جزت في المعدّية ولم يمنعني أحد، فوصلت إلى مدينة مالي، حضرة ملك السودان، فنزلت عند مقبرتها». وبعد أن دخل الدار التي اكتُريت له، وتلقى زيارات من الفقيه وابن الفقيه والقاضي، وبعث إليه أصدقاؤه بقرةً وثوراً وغرارتين من الفوني وقرعةً من الغَرْتي والأرز وغيره بحيث اطمأن الرحالة إلى حاجته، يعود إلى القول: «وكان ابن الفقيه متزوّجاً ببنت عمّ السلطان فكانت تتفقّدنا بالطعام وغيره. وأكلنا بعد عشرة أيّامٍ من وصولنا عصيدة تُصنع من شيء شبه القلقاس، وهي عندهم مفضّلة على سائر الطعام. فأصبحنا جميعاً مرضى، وكنّا ستّة، فمات أحدُنا. وذهبت أنا لصلاة الصّبح فغُشي عليّ فيها. وطلبت من بعض المصريين دواءً مسهلاً. . . فشربته وتقيّأت ما أكلته، مع صفراء كثيرة. وعافاني الله من الهلاك، ولكنّني مرضت شهرين»[41].

ولم يعجب السلطانُ منسى سليمان ابنَ بطّوطة لأنه كان بخيلاً لا يُرجى منه كبير عطاءً. فقد أقام ابن بطّوطة في جوار السلطان بضعة أشهر، لكنه لم يره بسبب مرضه. ثم صنع السلطان طعامَ عزاءٍ، واستدعى الأمراء والفقهاءَ والقاضي والخطيبَ وحضر ابنُ بطّوطة معهم. ولما فرغ القوم من ختم القرآن الكريم، دعَوا للسلطان منسى سليمان. وعندها تقدّم ابنُ بطّوطة فسلّم عليه، وأعلمه القاضي والفقيه وابن الفقيه بحال الرحّالة، فطلب منه السلطان (بالترجمة) أن يشكرَ الله؛ فقام بذلك. ثم يصف رحالتنا الوضع بقوله:

«ولما انصرفتُ بعث إليّ الضيافة، فوُجّهت إلى دار القاضي، وبعث القاضي بها مع رجاله إلى دار ابن الفقيه، فخرج ابنُ الفقيه من داره مسرعاً حافي القدمين، فدخل عليّ وقال «قم، قد جاءك قماشُ السلطان وهديتُه. فقمت وظننت أنها الخلع والأموال؛ فإذا هي ثلاثةُ أقراص من الخبز وقطعةُ لحمٍ بقريٍّ مقلوّة بالغَرتي وقرعةٌ لبنٌ رائبٌ. فعندما رأيتها ضحكت، وطال تعجبي من تعظيمهم للشيء الحقير».

والواقع أن عبارة ابن بطوطة تنمّ عن خيبة أملٍ كبيرة. فالرجل قد اعتاد، في رحلاته السابقة على تكريم وتلقي هدايا كبيرة. إلاّ أن الرحالة لم يخف ما في نفسه. فإن الأمر طال ولم يصل إليه شيء. وكان يتردّد في شهر رمضان إلى المَشْوَر ويسلّم على السلطان، فتكلّم الرحالة إلى دوغا، وهو ترجمانُ السلطان، في الأمر فقال له هذا: «تكلّم عنده وأنا أعبّر عنك بما يجب. فجلس [السلطان] في أوائل رمضان، وقمتُ بين يديه وقلت لهُ إني سافرتُ بلادَ الدنيا ولقيتُ ملوكَها، ولي ببلادِك أربعةُ أشهر، ولم تضفني ولا أعطيتني شيئاً. فماذا أقول عنك عند السلاطين؟» فقال «إنّي لم أرك ولا علمت بك». فقام القاضي وابنُ الفقيه فردّا عليه، وقالا «إنّه قد سلّم عليك وبعثت إليه الطعام. فأمر لي عند ذلك بدار أنزل بها، ونفقة تجري عليّ. ثم أعطى القاضي

والخطيب والفقهاء مالاً ليلة سبع وعشرين من رمضان يسمّونه الزكاة، وأعطاني معهم ثلاثة وثلاثين مثقالاً وثلثاً، وأحسن إليّ عند سفري بمئة مثقال»[42].

يصف ابن بطوطة جلوسَ سلطان مالي بالقبّة فيقول: «وله [للسلطان] قبّة مرتفعة، بابُها بداخل داره، يقعد فيها أكثر الأوقات، ولها من جهة المَشْوَر طيقان ثلاثة من الخشب مُغشّاة بصفائح الفضة، وتحتها ثلاثة مغشّاة بصفائح الذهب، وعليها ستور ملفّ [نسيج يشبه الجوخ]. فإذا كان يوم جلوسه بالقبّة، رُفعت الستور، فعُلِم أنه يجلس. فإذا جلس اخرج من شبّاك أحد الطيقان شرّابة حرير، قد رُبط فيها منديل مصري مرقوم. فإذا رأى الناس المنديل ضربت الأطبال والأبواق. ثم يخرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد، في أيدي بعضهم القسيّ وفي أيدي بعضهم الرماح الصغار والدَرَق». وبعد ذلك ينتظم المجلس بوجود نائبه والفراريّة وهم الأمراء والخطيب والفقهاء والسلحداريّة ويقف دوغا الترجمان على باب المَشْوَر وعليه الثيابُ الفاخرة. ويجلس الأجناد والولاة والفتيان وغيرهم في شارع خارج المشور فيه أشجار. فمن أراد أن يكلّم السلطانَ كلّم دوغا، ثم يُنقلُ الكلامُ إلى السّلطان[43].

ويجلس السّلطان أحياناً بالمَشور، وتكاد الثيابُ تكون مثل يوم جلوسه بالقبّة، لكنّ السلطان يخرج من باب القصر وعلى رأسه شاشيّة (طاقيّة) من ذهب، وأكثر لباسه جبّة حمراء مُوَبَّرة (أي ذات وبر) من الثياب الروميّة، أي الأوروبية ـ ويصعد المنبر متأنياً كما يفعل الخطيب[44].

وقد حضر ابن بطوطة عيدي الأضحى والفطر، فرأى الناس يخرجون إلى المصلّى القريب من قصر السلطان، يلبسون الثيابَ البيضَ الحسان. أمّا السلطان فعليه الطيلَسان، ويؤكّد ابن بطوطة أن السودان لا يلبِسون الطيلسان إلاّ في العيد، ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء فإنّهم يلبسونه سائر الأيام. وقد نُصِبَ عند المصلى خباء، يدخله السلطان ليصلح من شأنه. ثم يخرج إلى المصلى، حيث تُقضى الصلاة والخطبة. ويقول الرحالة «ثم نزل الخطيب، وقعد بين يدي السلطان وتكلّم بكلام كثير. وهناك رجلٌ بيده رمحٌ، يبيّن للناس بلسانهم كلام الخطيب: وذلك وعظٌ وتذكيرٌ وثناءٌ على السلطان وتحريضٌ على لزومِ طاعتِه وإداءِ حقِّه»[45].

ومن ألطف ما رواه ابنُ بطوطة هو مجلس إنشاد الشعراء للسلطان قال: «وإذا كان يوم العيد وقد أتمّ دوغا لعبه [هذا كان يتم بعد العصر في أيام الأعياد] جاء الشعراء. وقد دخل كلُّ واحدٍ منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش، تشبه الشقشاق [لعل ابن بطوطة قصد الشقراق، وهو طائر مرقّط بحمرةٍ وخضرةٍ وبياضٍ] وجُعِلَ لها رأسٌ من الخشب ومنقارٌ أحمر، كأنّه رأس ذلك الطائر. ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة فينشدون أشعارهم. وذُكِرَ لي أن شعرهم نوع من الوعظ»[46].

وقد لخّص ابن بطوطة رأيه في أفعال السودان في فصلٍ قصيرٍ سمّاه «ذكر ما استحسنتُه من أفعال السودان وما استقبحتُه منها، قال: «فمن أفعالهم الحسنة قلّة الظلم، فهم أبعد الناس عنه، وسلطانُهم لا يسامح أحداً في شيء منه. ومنها شمول الأمنِ في بلادهم، فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم سارقاً ولا غاصباً. ومنها عدمُ تعرّضهم لمال من يموت ببلادهم من البيض، ولَوْ كان القناطير المقنطرة، وإنّما يتركونه بيد ثقةٍ من البيض حتّى يأخذه مستحقّه. ومنها مواظبتهم على الصلوات، وملازمتهم لها في الجماعات، وضربهم أولادهم عليها. وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكّر الإنسان إلى المسجد، لم يجد أين يصلّي لكثرة الزحام. ومن عاداتهم أن يبعث كلّ إنسانٍ غلامَه بسجّادته، فيبسطها له بموضع يستحقّه به؛ حتى يذهب إلى المسجد. ومنها لباسُهم الثياب

البيض الحسان يوم الجمعة. ولو لم يكن لأحدهم إلّا قميصٌ خَلِقٌ غسله ونظّفه وشهد به الجمعة.

«ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم، وهم يجعلون لأولادهم القيود، إذ ظهر في حقهم التقصيرُ في حفظه، فلا تُفكّ عنهم حتى يحفظوه. وقد دخلت على القاضي يومَ العيد، وأولاده مقيّدون، فقلت له «ألا تسرّحهم؟» فقال «لا أفعل حتى يحفظوا القرآن». ومررت يوماً بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة، وفي رجليه قيدٌ ثقيلٌ، فقلتِ لمن كان معي «ما فعل هذا؟ أقَتَل؟» ففهم الشاب عنّي وضحك، وقيل لي «إنّما قيّد حتى يحفظ القرآن؟»».

«ومن مساوىء أفعالهم أن الخدم والجواري والبنات الصغار يظهرون للناس عرايا. ولقد كنت أرى في رمضان كثيراً منهنّ على تلك الصورة. فإن عادةَ الفراريّة [الأمراء] أن يُفطروا بدار السلطان، ويأتي كلُّ واحد بطعامه تحمله العشرون منهنّ فمن فوقهنّ من جواريه، وهنّ عرايا. ومنها جعلهم الترابَ والرمادَ على رأسهم تأدّباً. ومنها أن كثيرين منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير»[47].

ووجد ابن بطوطة تذلّل السودان لملكهم أمراً غريباً، فقال في ذلك: «والسودان أعظم الناس تواضعاً لملكهم وأشدّهم تذلّلاً له. ويحلفون باسمه. فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبّة التي ذكرناها، نزع المدعوّ ثيابَه ولبس ثياباً أخلاقاً، ونزع عمامته وجعل شاشيّة [طاقيّة] وسخةً [مكانها] ودخل رافعاً ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه، وتقدّم بذلّة ومسكنة، وضرب الأرض بمرفقيه ضرباً شديداً، ووقف كالراكع يسمع كلامه.

«وإذا كلّم أحدُهم السلطانَ فردّ عليه جوابه كشف ثيابَه عن ظهره، ورمى بالتراب على رأسه وظهره، كما يَفْعَلُ المغتسلُ بالماء... وإذا تكلّم السلطان في مجلسه بكلام وضع الحاضرون عمائمهم عن رؤوسهم وأنصتوا للكلام»[48].

وكان مما لفت ابنَ بطّوطة ودوّنه في رحلته قوله عن سودان مالي: «وشأن هؤلاء القوم عجيب، وأمرهم غريب. فأما رجالهم فلا غيرة لديهم، ولا يُنسب أحدهم إلى أبيه، بل يُنسب إلى خاله، ولا يرث الرجلَ إلّا أبناء أختِه دون بنيه. وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلّا عند كفّار بلاد المكبار من الهنود، وأمّا هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلّم الفقه وحفظ القرآن. وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن، مع مواظبتهنّ على الصلوات. ومن أراد التزوّج منهنّ تزوّج، لكنهنّ لا يسافرن مع الزوج، ولو أرادت إحداهنّ ذلك لمنعها أهلها. والنساء هناك يكون لهنّ الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب، وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات. ويدخل أحدُهم دارَه فيجد امرأته ومعها صاحبها، فلا ينكر ذلك»[49]. وروى ابن بطوطة حوادث معينة تأييداً لملاحظته هذه[50].

(7)

عاد ابن بطوطة إلى المغرب عن طريق تَنْبُكْتو وكَوْكَوْ (كاوكاو) وهاتان تقعان على نهر النيجر، لكن ابن بطوطة يسميه النيل، فقد كان يُظَنُّ يومها [وحتى إلى زمن طويل بعد ذلك] أن نهر النيجر هو نهر النيل، لذلك يجبُ أن نقرأ كلمة النيجر كل مرة تمر هنا كلمة النيل بالنسبة للسودان الغربي.

«ثم رحلت إلى مِيمَة فنزلنا على آبار بخارجها. ثم سافرنا منها إلى مدينة تَنْبُكْتو وبينها وبين النيل أربعة أميال، وأكثر سكانها مسّوفة أهل اللثام، وحاكمها يسمي فَربا موسى... ومن تنبكتو ركبت النيل في مركبِ صغيرٍ منحوتٍ من خشبةٍ واحدةٍ، وكنا ننزل كلّ لَيلة بالقُرى فنشتري ما نحتاج إليه من الطعام والسمن والملح، بالعطريات وبحلي الزجاج. ثم وصلت إلى بلد أُنسيتُ اسمه له أمير فاضل حاج يسمى فَربا سليمان، مشهورٌ بالشجاعة والشدّة لا

يتعاطى أحد النزع في قوسه، ولم أر في السودان أطول منه ولا أضخم جسماً. واحتجت بهذه البلدة إلى شيء من الذرة فجئت إليه، وذلك يوم مولد رسول الله ﷺ، فسلّمت عليه وسألني عن مقدمي. وكان فقيه يكتب له فأخذت لوحاً كان بين يديه وكتبت فيه يا فقيه قل لهذا الأمير إننا نحتاج إلى شيء من الذرة للزاد والسلام. وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سراً ويكلّم الأمير في ذلك بلسانه. فقرأه جهراً وفهمه الأمير فأخذ بيدي وأدخلني إلى مَشْوَرِهِ وبه سلاح كثير من الدَرق والقسيّ والرّماح، ووجدت عنده **كتاب المدهش** لابن الجوزي، فجعلت أقرأ فيه. ثم أتى بمشروب لهم يسمى الدَقْنو وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل أو لبن، وهم يشربونه عوض الماء، لأنهم إن شربوا الماء خالصاً أضرّ بهم، وإن لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن. ثم أتى ببطيخ أخضر فأكلنا منه. ودخل غلام خماسي فدعاه وقال لي هذا ضيافتك واحفظه لئلا يفر فأخذته وأردت الانصراف. فقال أقم حتى يأتي الطعام وجاءت إلينا جارية له دمشقيّة عربيّة فكلّمتني بالعربي... وودعته وانصرفت، ولم أر في السودان أكرم منه ولا أفضل. والغلام الذي أعطانيه هو باق عندي إلى الآن.

«ثم سرت إلى مدينة كَوْكَوْ [كاوكاو] وهي مدينة كبيرة على النيل من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها. فيها الأرزّ الكثير واللبن والدّجاج والسّمك، وبها الفقّوص العناني الذي لا نظير له. وتعامل أهلها في البيع والشراء بالوَدع وكذلك أهل مالي. وأقمت بها نحو شهر وأضافني بها محمد بن عمر من أهل مكناسة، وكان ظريفاً مزّاحاً فاضلاً وتوفي بها بعد خروجي عنها. وأضافني بها الحاج محمد الوجدي التازي وهو ممن دخل اليمن، والفقيه محمد الفيلالي إمام مسجد البيضان. ثم سافرت منها برسم تَكِدّا في البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين دليلهم ومقدمهم الحاج وُجّين ومعناه الذئب بلسان السودان. وكان لي جمل لركوبي وناقة لحمل الزاد فلمّا رحلنا أوّل مرحلة نفقت الناقة فأخذ الحاج وُجّين ما كان عليها وقسمَه على أصحابه فتوزّعوا حمله...

«ثم وصلنا بلاد بَرَدامة وهي قبيلة من البربر، لا تسير القوافل إلّا في خفارتهم، والمرأة عندهم في ذلك أعظم شأناً من الرجل. وهم رحّالة لا يقيمون وبيوتهم غريبة الشكل يقيمون أعواداً من الخشب ويضعون عليها الحصر وفوق ذلك أعوادٌ مشتبكة وفوقها الجلود أو ثياب القطن... وأصابني المرض في هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء. واجتهدنا في السير إلى أن وصلنا مدينة تَكِدّا. ونزلت بها في جوار شيخ المغاربة سعيد علي الجزولي وأضافني قاضيها أبو إبراهيم إسحاق الجاناتي وهو من الأفاضل، وأضافني جعفر بن محمد المسّوفي. وديار تكدّا مبنية بالحجارة الحمر وماؤها يجري على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك، ولا زرع بها إلّا يسيرٌ من القمح يأكله التجار والغرباء ويباع بحساب عشرين مدا من أمدادهم بمثقال ذهب، ومدهم ثلث المد ببلادنا. وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مداً بمثقال ذهب... ولا شغل لأهل تَكِدّا غير التجارة. يسافرون كلّ عام إلى مصر ويجلبون من كلّ ما بها من حسان الثياب وسواها، ولأهلها رفاهية وسعة حال ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم، وكذلك أهل مالي وإيوالاتن. ولا يبيعون المعلّمات منهن إلّا نادراً وبالثمن الكبير...

ومعدن النحاس بخارج تكدّا يحفرون عليه في الأرض ويأتون به إلى البلد فيسبكونه في دورهم، يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم. فإذا سبكوه نحاساً أحمر صنعوا منه قضباناً في طول شبر ونصف، بعضها رقاق وبعضها غلاظ، فتباع الغلاظ منها بحساب أربع مائة قضيب بمثقال ذهب، وتباع الرِّقاق بحساب ستمائة وسبع مائة بمثقال، وهي صرفهم يشترون

برقاقها اللحم والحطب، ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح. ويحمل النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار وإلى زغاي وإلى بلاد برنو وهي على مسيرة أربعين يوماً من تكدّا وأهلها مسلمون، لهم ملك اسمه إدريس لا يظهر للناس ولا يكلّمهم إلاّ من وراء حجاب. ومن هذه البلاد يؤتى بالجواري الحسان والفتيان والثياب المجسّدة.

«ولما عدت إلى تكدّا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي بأمر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمراً لي بالوصول إلى حضرته العلية، فقبّلته وامتثلته على الفور. واشتريت جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالاً وثلث. وقصدت السفر إلى توات، ورفعت زاد سبعين ليلة إذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدّا وتُوات، إنما يوجد اللحم واللبن والسمن، يُشترى بالأثواب. وخرجت من تَكِدّا يوم الخميس الحادي عشر لشعبان سنة أربع وخمسين في رفقة كبيرة، فيهم جعفر التُواتي وهو من الفضلاء، ومعنا الفقيه محمد بن عبدالله قاضي تَكِدّا، وفي الرفقة نحو ستمائة خادم، فوصلنا إلى كَاهِر من بلاد السلطان الكركرّي، وهي أرض كثيرة الأعشاب يشتري بها الناس من برابرها الغنم ويقدّدون لحمها، ويحمله أهل تُوات إلى بلادهم. ودخلنا منها إلى بريّة لا عمارة بها ولا ماء وهي مسيرة ثلاثة أيّام. ثم سرنا بعد ذلك خمسةَ عشر يوماً في بريّة لا عمارة بها إلاّ أنّ بها الماء. ووصلنا إلى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر وطريق تُوات (وهنالك احساء ماء يجري على الحديد فإذا غسل به الثوب الأبيض اسودّ لونه). وسرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا إلى بلاد هكّار، وهم طائفة من البربر ملثّمون لا خير عندهم. ولقينا أحد كبرائهم فحبس القافلة حتى غَرِموا له أثواباً وسواها. وكان وصولنا إلى بلادهم في شهر رمضان. وهم لا يغيرون فيه ولا يعترضون القوافل، وإذا وَجَد سرّاقُها المتاعَ بالطريق في رمضان لم يعرضوا له؛ وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر. وسرنا في بلاد هكّار شهراً وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة طريقها وعر ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابر أهل لثام كهؤلاء فأخبرونا بأخبار بلادنا.

ثم وصلنا إلى بودا وهي من أكبر قرى تُوات وأرضها رمال وسباخ. وتمرها كثير ليس بطيب، لكنّ أهلها يفضّلونه على تمر سِجلماسَة. ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت وإنما يُجلب لها ذلك من بلاد المغرب، وأكل أهلها التمر والجراد وهو كثير عندهم يختزنونه كما يُختزن التمر، ويقتاتون به ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس فإنه لا يطير إذ ذاك لأجل البرد. وأقمنا ببودا أيّاماً ثم سافرنا في قافلة ووصلنا في أواسط ذي القعدة إلى مدينة سِجلماسَة[51].

وهكذا عاد ابن بطوطة إلى سِجلماسَة وهي المدينة التي انطلق منها في رحلته الصحراوية ـ السودانية.

(8)

جربنا، في هذه الصفحات التي مرت، أن نجمع المادة الأساسية عن سكان الجزء الغربي من الصحراء الكبرى والسودان الغربي من المظان الأصلية الأربعة: ابن حوقل والمقدسي والبكري وابن بطوطة. وهي مصادر معاصرة للفترة الممتدة من القرن الرابع/العاشر إلى القرن الثامن/الرابع عشر. ولم نلجأ إلى المؤرخين أو الجغرافيين الذين نقلوا من هنا وهناك لأننا لم نقصد، في هذه المناسبة، أن **نؤرخ**.

والمادة التي نقلناها تتعلق بالأقوام ونماذج حياتهم ومعتقداتهم، لا تفصيلياً ولكن بشكل عام، لأننا أردنا أن نحاول التوصل إلى أمر واحد: هو هل يمكن أن نفهم الحياة البشرية لتلك الجماعات؟

وأول ما يترتب علينا أن نسأله هو: ما نوع المادة التي حصلنا عليها؟ والجواب واضح لمن قرأ هذا الذي وضعناه أمام القارىء. لكن لا بأس من إبداء

ملاحظة هامة وهي: أن المادة التي جمعناها هي التي تصف حياة هؤلاء الناس. وعلينا، إذن، في سبيل الافادة منها، أن نحاول تفسير هذه المادة. ورغبة منا في أن لا نطيل الحديث، فإننا ننتقل إلى إبداء رأينا، آملين أن يكون فيه فائدة تدريبية لنا أولاً ولقراء الفكر العربي ثانياً.

1 ـ من الواضح أن هناك نوعين من أساليب العيش سادا المنطقة، وهما نوعان متباينان. الأول تحتضنه الصحراء التي فيها مسافات تقطع في أيام وأسابيع دون عشب أو شجر أو حيوان أو حتى ماء. الحياة هنا تتمركز في بقاع محدودة عدداً وضيقة مساحة. إذ يقيم الناس حول ماء (ولو كان زعافاً) وقد يزرعون، ولكن في أغلب الحالات لا يزرعون، وإنما يأكلون اللحم واللبن، وإذا جاءهم التجار بحبوب أو أشياء أخرى أطْعموها. فمن ذلك الجماعات التي قد يعيش الفرد فيها حياته دون أن يرى الخبز أو يعرف الحب. وإذن: لماذا يقيم الناس هناك؟ إما أن يكون لهم مورد رزق محلي يبيعونه للناس البعيدين. تَغازَى معدنُ الملح، تادْمَكّة معدن النحاس. هذان مثلان. وإلاّ فإن الجماعات التي تقيم في مستقر وسط الصحراء، تكون واسطة لنقل الحاجات (السلع) من مكان إلى آخر. فنحاس تادمَكّة وملح تغازي وأوليل تنقله القوافل ـ قوافل الشمال تحت حماية الملثمين أو قوافل الملثمين أنفسهم. وهذه المراكز التجارية ـ من سِجِلماسَة في الشمال إلى تنبكتو على النيجر ـ تضم إلى الذهب والملح سلعاً أخرى يحتاجها الناس في الشمال (العاج والرقيق وريش النعام) وفي الجنوب (حلي النساء والودع والأدوات النحاسية وآلاتَ الحرب والقتال).

2 ـ في الساحل (السهوب الغنية) وفي المنطقة الواقعة جنوبه أي السودان الغربي، تقوم القرى والمدن أصلاً على زراعة متنوعة الانتاج. فالحبوب والخضراوات والفواكه موجودة مستعملة. وفيما نجد أن القمح لا يأكله في بعض المراكز الصحراوية إلاّ الحكام وأهل اليسار، نجد أنه في السودان معروف لدى الجميع، ولعلّ الجميع يأكلونه إن لم يكن يومياً، ففي مناسبات كثيرة.

3 ـ لكنْ الذي نحصل عليه من مصادرنا هو أن سكان الصحراء وسكان السودان يقوم النظام الاجتماعي عندهم على القبيلة. الكلمة تتردد عند البكري وابن بطوطة، وهما اللذان تحدثا عن السودان بتفصيل. لكن الذي نستطيع أن نقوله إن الرابطة القبليةِ هي في الصحراء أوضح وأقوى منها في السودان. إنها في الأولى تظل رابطة دم وعنصر، أما في السودان فترتبط بعض الشيء بالمكان فتكسب بعض صفات الاستقرار.

4 ـ وهناك مجموعة من الأشياء يمكن إجمالها هنا باختصار. منها أن أسلوب الاتجار كان أقرب شيء إلى المقايضة، وإن الملح والذهب كانا أقوى أسس المقايضة منطقة بمنطقة لا سلعة بسلعة دائماً. وفي جهات تادْمَكّه يضاف النحاس المسبوك أساساً لتصريف الأعمال التجارية. ولا نقرأ إلاّ فيما ندر شيئاً عن تسعير محدد وهو عندما يقال إن كذا من القمح يباع بمثقال من الذهب. وما دمنا نتحدث عن نواح شبه تجارية فلنذكر ان الجمل كان سيد الصحراء للنقل، والحصان كان موجوداً للأبَّهة، فيما كانت الخيل توجد عند حكام المدن السودانية، وكانت تظهر في الاحتفالات الكبرى. لكنِ الذي يجب أن لا يغيب عن البال هو أن المنطقة السودانية كانت تعتمد على الخيول التي تنقل إليها من الشمال.

5 ـ لعلّ التغير الرئيسي الذي أصاب المنطقتين الصحراوية والسودانية في الفترة التي نعالجها هو انتشار الاسلام. هناك مناسبتان فرض فيهما الاسلام على مكانين ـ مدينتين ـ أُوداغُشْت وغانة لما احتلهما المرابطون. وكان ذلك على أولي الأمر فيهما. أما عدا

ذلك فإن الاسلام انتشر في تلك الربوع على أيدي التجار المسلمين الشماليين. فقد كان تصرفهم وأمانتهم ومحافظتهم على أمور دينهم هي التي حببت الجماعات في الاسلام وشجعتهم على اعتناقه. لذلك لا نجد (حتى أيام ابن بطوطة في أواسط القرن الثامن/الرابع عشر) أن الاسلام شمل الجميع. فنحن نجد (عند البكري) أن كوغة أهلها مسلمون وحولها السكان مشركون. ومثل ذلك يقال بالنسبة إلى جماعتين (مدينتين) سلّى كانت مسلمة فيها كانت قلنبو «إلى جانب الكفر». وحتى في الذي نقلناه عن ابن بطوطة نجد شيئاً من ذلك. وإذا أردنا أن نعمم بعض الشيء قلنا إنه إلى ذلك الوقت كان المسلمون سكان المدن في السودان، مثل غانة التي كانت فيها مدينة مسلمة (تجارية) ومدينة مشركة هي عاصمة الملك، وتقوم في الغابة.

6 ـ فضلاً عن هذا الذي ذكرناه فقد لاحظنا وجود أمور، حتى بين المسلمين، فيها بقية من العادات القديمة. وقد أوضح ذلك كل من البكري وابن بطوطة. والذي يمكن أن يستخلص من المادة التي بين أيدينا هو أن الفئات المختلفة قبلت الاسلام عملاً وقبلت به أسلوباً طيباً، لكنها لم تكن تعرف عنه ما يكفي. ومع أننا نقف على وصف لمكان أنه كان فيه مساجد كثيرة، وحتى عندما نقرأ عن مكان أنه كان فيه معلمون مسلمون، يجب أن نذكر أن هذا لم يكن يشمل كل مكان. إن الأمر يختلف عندما تقوم دولة سنغاي في تلك المنطقة. تكون عندها الجماعات أصبحت شديدة العناية بالمعلم والمقرىء والتعلم، لذلك تسعى إليه. ونجد عندها رحلة المعلمين من الشمال، ونجد أن السلع التجارية أضيف إليها الكتاب والورق، للقراءة والتعليم.

ولأن الناس كانوا يجهلون تعاليم الاسلام الدقيقة، لم يجدوا بأساً في تصرفهم على الأسلوب القديم، ما داموا يحافظون على الصلوات ويؤمنون بما يطلب منهم كمسلمين. فهُم فهموا الاسلام وأحكامه سطحياً. وقد نقل ابرهيم علي طرخان تقليداً اشتهر في مالي، بعد أن علق عليه بقوله: «على أن الغريب حقاً هو سطحية الفهم للدين الاسلامي وأحكامه، بدليل ما رواه العمري والقلقشندي عن تقليد اشتهر في مالي وهو انه من عادة أهل مملكته [مالي]، أنه إذا نشأ لأحد بنت حسناء، قدمها له أمة موطوءة، فيملكها بغير تزويج مثل ملك اليمن». وقد سأل ابن أمير حاجب السلطان موسى [مَنْسى] في ذلك وقال له: إن هذا لا يحل لمسلم شرعاً. فقد موسى: ولا للملوك؟ أجابه، ولا للملوك واسأل العلماء. فقال الملك: والله ما كنت أعلم ذلك»[52].

الصحراء والسودان الغربي كما عرفهما العرب من القرن الرابع إلى الثامن الهجري

SAHARA AND SUDAN AS KNOWN TO ARABS IN THE 7th - 15th CENTURIES

جزر كناري
CANARY
ISLANDS
السوس الأقصى
سجلماسة
جبل نفوسه
JABAL NAFUSA
ودّان
بودا
LAWAT
توات
مسّوفة
MASSUFA
تغازى
AZQAR
هكار
HAKKAR
زويله
FEZZAN
الفزان
الكفرة
WAH SABRU (KUFRA)
ANBIYAJA
SANHAJA
صنهاجة
لمتونة
LAMTUNA
SAHARA
KAWAR
أبو بالماء
اوداغشت
تادمكة
مسوّفة
MASSUFA
غُدّاله
أوليل
JUDDALA
برْدامه
تكّادا
HAYR (AIR)
BORKOU
BORKAMA
ايولاتان (ولاطة)
MADASA
SAGHMARA
BURDANA
WARHAM
FAKRUR
غانة
تكرور
QANANBU
WANQARA
كوغه
كاوكاو
سامه
نهر النيجر
KUBAR
AFNO
بحيرة تشاد
ZAGHAWA
QORAN
دارفور
MAMA
مالي
NUFI
KANEM
كانم
JAJA
NAKHLA
BORNI
وبورنو
DARFUR
TAJUH

الحواشي

(1) راجع E.B. Microp. Africa؛

L.C. Briggs ' *The Tribes of the Sahara* (Combridge, Mass, 1960), passim.

(2) ابن حوقل، **صورة الأرض** ص 100؛ الأدريسي، **وصف افريقيا واسبانية** (ترجمة افرنسية لهذا الجزء من **نزهة المشتاق**، عمل دوزي ودي خويه، طبعة امستردام، 1969) ص 31.

(3) ابن حوقل، ص 96 وما بعدها؛

M. Lombard L'Islam dans sa premier grandeur (Paris, 1971) pp. 67-76; B. Davidson. *A History of West Africa 1000-1800* (new revised ed., London, 1977) p. 33; N. Levtzion, *Ancient Ghana and Mali* (London, 1973) pp. 136-152.

(4) البكري، **كتاب المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب** (طبعة باريس 1965) ص 172 وما بعدها؛

H.T. Norris, *The Arab Conquest of the Western Sahara* (London, 1986), pp. 2-16; J.S. Trimingham *History of Islam in West Africa* (London, 1962) pp. 34 ff; Levtzion, pp. 153-170; Davidson, pp. 9-11, 20-22, 28-

(5) البكري، ص 163 وما بعدها؛

Trimingham pp. 16-33; Davidson, pp. 136-8.

حسن ابراهيم حسن، **انتشار الاسلام والعروبة فيها يلي الصحراء الكبرى** (القاهرة، 1957) ص 3-9; 41-51؛ عبدالرحمن زكي **تاريخ الدول الاسلامية السودانية** (القاهرة، 1961)، ص 29-35.

(5 أ) Davidson, pp. 36-38.

(6) البكري، ص 174-180؛ حسن ابرهيم حسن؛ ص 52-59؛ عبدالرحمن زكي، ص 71-93؛

Trimingham, pp. 40-60; Levtzion, passim; Davidson, pp. 34-45; J. Suret-Canale, *Afrique* Noire occidentale (Paris, 1961) pp. 147-53;

D. J. Fage Troduction to the History of West Africa (4th ed. C.U.P.) pp. 18-24.

(7) Levtzion, pp. 63-83.

(8) عبد القادر زبادية **مملكة سنغاي في عهد الأسيقين 1493-1591** (الجزائر، 1971) في مجمله؛ حسن، ص 66-71، زكي، ص 133-147؛ نقولا زيادة «المغرب والسودان في أيام المنصور الذهبي» كتاب العيد (الجامعة الأميركية بيروت، 1967) ص 29-98؛ محمد الغربي **الحكم المغربي في السودان الغربي** (رسالة دكتوراه في التاريخ، الجامعة اليسوعية بيروت، 1980 مخطوطة؛

Trimingham, pp. 83-103; Levtzion, pp. 84-93; Suret-Canale, 27-31, Davidson, 68-81.
Trimingham, 110-126; Davidson.

(9) زكي، 173-181؛ حسن، 83-86؛ 97-105.

(10) المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم** (ليدن، 1906)، 216.

(11) ابن حوقل، 84.

(12) ابن حوقل، 91.

(13) ابن حوقل، 98.

(14) ابن حوقل، 97 و98.

(15) ابن حوقل، 100. يذكر ابن حوقل اسماء عدد كبير من قبائل البربر الصحراوية (101-103) فليرجع إليه.

(16) المقدسي، 239.

(17) ابن حوقل، 98-99.

(18) البكري، 164.

(19) البكري، 170.

(20) البكري، 181-182.

(21) ابن حوقل، 95.

(22) البكري، 172-173.

(23) راجع محمود اسماعيل عبد الرازق **الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري** (القاهرة، لاثا) في مجمله؛ ابرهيم علي طرخان. **دولة مالي الاسلامية** (القاهرة، 1973) في مجمله؛

Charles-Andrae Julien
History of North Africa (London, 1970) passim.

(24) المقدسي، 215.

(25) المقدسي، 231.

(26) ابن حوقل، 90.

(27) ابن حوقل، 96-97.

(28) عبد الرازق، 124-125; Julien 33-4, 57-8

(29) عبد الرازق، 210-228.

(30) البكري، 121.

(31) البكري، 158 و168.

(32) ابن بطوطة، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** (باريس، المطبعة الوطنية 1874-1879)، ج 376/4).

(33) البكري، 174-176.

(34) البكري، 179.

(35) البكري، 173-174.

(36) البكري، 170.

(37) البكري، 179.

(38) البكري، 178.

(39) ابن بطوطة 375/4.

40) ابن بطوطة 393/4.

(41) ابن بطوطة 393/4.

(42) ابن بطوطة 403/4.

(43) ابن بطوطة 403/4 وما بعدها.

(44) ابن بطوطة 405/4 وما بعدها.

(45) ابن بطوطة 403-405.

(46) ابن بطوطة 413/4-414.

(47) ابن بطوطة 421/4-422.

(48) ابن بطوطة 407/4-408.

(49) ابن بطوطة 387/4-389.

(50) ابن بطوطة 389/4-390.

(51) ابن بطوطة 429/4 وما بعدها.

(52) طرخان، 162-163، وقد أورد مصدره في مسالك الأبصار، ج 2 ق 3 ورقة 502 وصبح الأعشى ج 5 ص 296.